الحرب في الخنادق

رأينا في مجلة بيرسن الانكليزية وصفاً لمناوشة صغيرة في الخنادق مما لا يذكر في البلاغات الرسمية او يشار اليه كأنه ليس شيئاً كثيراً شاهد عين فاقتطفنا منهُ ما يأتي للدلالة على ما يعانيهِ الجنود في هذه الحرب الزبون

قال الكاتب نزلت الارطة المسماة « بنجوم الملك » في الخنادق التي ارسلت اليها وكان الوقت ليلاً والظلام داماً والبرد شديداً والمطر غزيراً ومع ذلك كان رجالها راضين مسرورين كأنهم خرجوا للصيد والقنص لان هذا اول عهدهم بالحرب فانهم قضوا بعض الاسابيع وهم يعملون في حفر الخنادق الخلفية حتى عيل صبرهم وودُّوا ان يؤمروا بالتقدم الى الخنادق الامامية ليحاربوا فيها فلما جاءت نوبتهم اتوها راضين جذلين كأنهم مُنحوا منحة سنيةً جزاء صبرهم وطول اناتهم

ولم يستقر بهم المقام حتى جعل ضباطهم الصغار يتفقدون الخنادق التي نزلوها تفقُّد من يعدُّ نفسهُ مسؤولاً عما بيدهِ . والضباط الذين فوقهم يظهرون الاهتمام الشديد كأن الشأن شأنهم والمسؤولية كلها ملقاة عليهم . وقد استحكم القلق والاضطراب من القائد الذي يقود هذه الارطة فاخذ يمعن نظرهُ في خريطة الخنادق ويفرض ان العدو هاجمهُ من هذه الجهة او من تلك ويقدّر ما يجب عملهُ في الحالة الاولى او الثانية ويرسم بالقلم خطوطاً من بنادقهِ الآلية الى النقط الحمراء على الخريطة التي تمثل مواقع الالمان والاسلاك الشائكة التي تحصنوا داخلها وهو يشُرُّ تارة ويعبس اخرى ويمعن نظرهُ في الاشارات التي رسمها على الخريطة قائد الارطة التي كانت هناك قبلهُ مشيراً بها الى ما قدَّرهُ من مواقع مدافع الالمان . ثم قام وجال في الخنادق كلها خالصاً وحدهُ . وحاول ان يخفي عن الضباط الذين تحتهُ ما على وجههِ من امارات القلق ويتظاهر بالبشاشة وطلاقة الوجه فكلمهم مستخفًّا بالامر وكان يهزل معهم احياناً معربًا عن ثقتهِ التامَّة بهم كلما رآهم قلائل الثقة بانفسهم . ثم عاد الى مركز القيادة لتلك الارطة وراء الخنادق التي يأتي منها المدد وهو في قبو مزقت القنابل جدران البيت الذي فوقهُ وهدمتهُ . وتغشى مما لديهِ من الطعام المخلوط بالرمل والتراب

وكان رجال الاشارات قد اقيموا عند باب القبو ومعهم تليفوناتهم وخطوطها ممتدة الى الخنادق والى مركز القيادة العامَّة وكان القائد يسمع كل كلة تقال سواء اتت من الخنادق او من مركز القيادة العامَّة . ولما تمَّ عشاءهُ سأل الذين في الخنادق الامامية عما عندهم ثم خلع

جزمتهُ وعاد فلبسها واستلقى على فراش من القش كظهر الترس واغمض عينيهِ ومضت ساعة وهو يسمع صوت كل بندقية ومدفع وكل كلة يتكلم بها رجال الاشارات بالتلفون واخيراً قال في نفسهِ ان الارطة في خنادق لم تهاجَم منذ اسابيع فلا يرجَّح انها تهاجَم الآن وكل ضباطها موثَّقون كبارهم وصغارهم فيمكن الاعتماد عليهم في التيقظ والدفاع فلا موجب لقلقي وارقي ويجب عليَّ ان انام الآن واستريح

فجلس وخلع جزمتهُ واستلقى على ظهرهِ واغمض عينيهِ ولكنهُ لم ينم بل بقي مستيقظاً الليل كلهُ . ثم انهُ كان يعرف جنودهُ حق المعرفة وهم من المتطوعين وقد علَّمهم ودرَّبهم منذ بداءة التعبئة الى الآن ورآهم اطوع لهُ من بنانهِ لا يشكون من مشقة ولا يحجمون عن متعبة ولكنهم لم يدخلوا معمعة حتى الآن وقد تكون هذه الليلة اول ليلة يذوقون فيها طعم النار ولا يعلم طعمها الاَّ الذي ذاقها . ولقد كان اولئك الجنود على غاية التشوُّق الى الحرب ولكن تشوُّقهم هذا قد يلقي بهم الى التهلكة . وكان يعلم انهم يصبرون على القتال صبر الكرام ويستبسلون في الدفاع عن شرف بلادهم الى ان يقتل آخر رجل منهم ولا يتخلَّون عن شبر من خنادقهم . وكان يشق بهم كما يشق بنفسهِ ولكنهُ هو لم يدخل معمعة حتى الآن ولا هم دخلوها فلم تمتحن بسالتهم كما لم تمتحن بسالتهُ . وكثيراً ما خارت عزائم اناس مثلهُ ومثلهم وقت الشدَّة . وقد اجمع قوَّاد الحرب في كل العصور على عدم الاركان الى الجندي الذي لم يجرَّب . اما هو فقد فعل كل ما يستطيعهُ وسيبين الآن هل احسن صنعاً في ما فعل او اساء

اما الجنود فجاسوا آمنين في خنادقهم غير دارين بما يجاس قلب قائدهم من الظنون والمخاوف ولو دروا بها لازدروها . واقاموا عليهم الحرَّاس وقضوا جانباً كبيراً من وقتهم وهم يرصدون من فوق المتاريس لعلهم يرون نوراً عند اعدائهم او اشارة تبدو منهم . واوقدوا من المشاعل تلك الليلة ما لا توقدهُ ارطة مثلهم في شهر من الزمان . وكان الالمان مشغولين بعد بعض الاسلاك الشائكة فرأوا تلك المشاعل توقد من وقت الى آخر على غير المعتاد واستغربوها واطلقوا على الارطة بعض المبنادق وللحال اسرع رجال الارطة الى متاريسهم وصبوا على خنادق الالمان ناراً حامية وهم لا يرون احداً منهم . فابطل الالمان اطلاق بنادقهم الاَّ نحو عشرة منهم من المشهورين بحسن الرماية فانهم استمروا على اطلاق بنادقهم بين آونة واخرى فاصابوا سبعة من جنود الارطة قتل منهم واحد وجرح الستة الباقون وللحال امرهم ضباطهم ان يكفوا عن اطلاق الرصاص جزافاً ويتكتَّموا في خنادقهم وتُقل الجرحى الى خيمة الاطباء وراء الخنادق واخذ الذين كانوا على مقربة منهم يحدثون رفاقهم بما رأوا ثم عاد واحد من

الجرحى الى الخنادق بعد ان رُبط جرحهُ وجعل يحدّث رفاقهُ كيف يشعر من اصابتهُ رصاصة وماذا قال لهُ الطبيب وكيف حال رفاقهِ الجرحى ويستعين بالاشارات على ايضاح مرادهِ كأنهُ في مشهد التمثيل . وبينما ملتفّون عليهِ يسمعون حديثهُ امطرت السماء فاسرع الحراس الى مناريسهم وتفرّق الباقون الى مخادعهم لان ما يكفُّ من سقوطها اقل مما تصبُّهُ السماء من المطر . وبات الضباط يطوفون على المناريس ثلاثاً ينام احد من الحرّاس ودامت الحال على هذا المنوال الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل وحينئذٍ خرج بعض الالمان من خنادقهم ليتمّوا نصب الاسلاك الشائكة وجعلوا يتطرحون على الارض كلما رأوا نوراً يزغ من خنادق الانكليز ويعودون الى عملهم متى طفئ النور وعادت الظلمة . وكانوا يعملون بايديهم متلمسين وعيونهم شاخصة الى حيث خنادق الانكليز

وكانت الارض بين خنادق الالمان وخنادق الانكليز مغطاة باشلاء القتلى واكثرهم من الالمان فاذا نام بينهم عشرون رجلاً او اكثر عسر تمييزهم في ذلك النور الضئيل . واتفق انهُ لما كادوا يتمون عملهم وعاد واحد منهم وصعد على مناريس خنادقهم اضاء الانكليز مشعلاً فوقع نورهُ عليهِ فوقف متردداً بين ان يرمي نفسهُ في الخندق او يعود ادراجهُ لكنهُ فضل العود فوثب وارتمى على الارض امام المناريس فبان جلياً بنور المشعل ورآهُ احد الحراس الانكليز فبادرهُ بنار حامية وصرخ باعلى صوتهِ اتوا اتوا . فبادر الجنود كلهم الى بنادقهم ومدافعهم وانطرح الالمان على الارض ولكن اشعة المشاعل وُجّهت اليهم حينئذٍ فكشفتهم وانهال الرصاص عليهم فنهضوا وحاولوا الهرب وهم لابسون ازدية طويلة فتعثّروا بها فاصاب رصاص الانكليز ستة او سبعة منهم وارداهم ثم اصاب اثنين او ثلاثة قبلما ساروا خطوتين واصاب غيرهم بعد ذلك وكان الباقون قد نهضوا وحاولوا الهرب وهم يرتطمون بالوحل ويتعثرون باذيالهم ورصاص المكسيم يتبعهم ويشويهم الى ان لم يبقَ منهم احد . وصار الرصاص يصيب مناريس الالمان لانهُ لم يبقَ امامهُ اشخاص يصيبها ولم يقف الرماة عن الرمي الاّ لما فرغت خزائن تلك المدافع الآلية من رصاصها ودعت الحال الى وضع خزائن غيرها وقد تمّ ذلك كلهُ ووقفت البنادق عن اطلاق الرصاص قبلما تمكن المدفعية من تسديد مدافعهم واطلاق القنابل منها لكنهم لم يدعوا تعبهم في تسديدها يذهب سدًى فاطلقوا بعض القنابل منها فوق مناريس الالمان ولما رأوا ان البنادق ابطلت اطلاق الرصاص ابطلوا هم اطلاق القنابل ايضاً وانتظروا اوامر ضباطهم حتى اذا جاءتهم تركوا مدافعهم وعادوا الى مخادعهم والتفّوا باحرمتهم . ووصل الخبر الى رجال المدافع البعيدة وكانت مسدّدة على

خنادق الالمان فاصلتها ناراً حامية لكي ترى الالمان انها ساهرة يقظة ولم تبطل صب القنابل عليها الاَّ بعد ما بطلت خنادق الخنادق الامامية ومدافعها . وقد حدث ذلك كلهُ لان جندياً من جنود الالمان العاملة وقع عليهِ النور وهو صاعد على متراس قومهِ . اما الجنود النظامية النازلة على يمين هذه الارطة وشمالها فعرفت ان ما حدث انما حدث عن دهش فلا شأن لهُ فلم تطلق من المدافع الاَّ ما اعتادت اطلاقهُ كل ليلة

وكانت النتيجة ان النجوم اي جنود هذه الارطة شاهدوا القنابل تسير في اقواسها فوق خنادق الالمان وقنابل الالمان تقع في خنادقهم وتنفجر فيها ولكنها لم تكن كثيرة فلم يعبأوا بها الاَّ بعد ان اصابت نحو اثني عشر رجلاً منهم . والذين يصابون بالقنابل المنفجرة لا يروق منظرهم احداً ولاسيما اذا تمزقت اعضاؤهم واضطر رفاقهم ان يجمعوا قطعها ويحملوها في زنبيل . وبزغ الفجر وجنود الارطة وقوف في خنادقهم وبنادقهم في ايديهم وهم يرتجفون برداً على رغم ثيابهم الصوفية وارديتهم الكبيرة والرصاص يئنُّ فوق رؤوسهم والقنابل تساقط في خنادقهم . والفجر اشد الاوقات ضيقاً على الجندي اذ ينهض ويخرج من دثارهِ فيجد كل شيء حولهُ بارداً رطباً ملطخاً بالوحل والحمأة . ومهما تكرر ذلك عليهِ يوماً بعد آخر لا يألفهُ ولا تزول كراهتهُ من نفسهِ . وهذه الارطة على ما فيها من الغيرة والحمية ومحبة الجديد كرهت تلك الساعة واستثقلتها وسرَّت لما رأت ضباطها ينظرون الى ساعاتهم الى ان امروا رجالها بالانصراف فشرعوا للحال يوقدون النار ويغلون الماء لعمل الشاي حتى اذا افطروا عادوا الى الاعمال العادية التي يعملها الجنود في الخنادق وهكذا انتهت الليلة الاولى

واختير الذين يحسنون الرماية لكي يقيموا في المتاريس لازعاج العدو وارهابهِ فجعلوا يطلقون رصاصهم على متاريسهِ وعلى كل منفذ يظنون ان الالمان يمرون وراءهُ . وكان مع كلٍّ منهم نظارة يرقب بها ما امامهُ من الاشجار والانجم والآكام والجدران وكل ما يمكن ان يختبئ رماة الالمان وراءهُ حتى اذا برق بارق من ورائهِ علم ان هنالك جندياً من رماة الالمان وقد اطلق بندقيتهُ فيسدد هو بندقيتهُ اليهِ ويستمر على اطلاق الرصاص عليهِ الى ان يُقتل او يهجر ذلك المكان . وكان رماة الالمان يفعلون كما يفعل رماة الانكليز فاصابوا من رماة الانكليز اكثر مما اصاب رماة الانكليز منهم إما لانهم اسرع في الرماية او لان رماة الانكليز لازموا مواقفهم اكثر مما تقتضيهِ الحكمة

والاعمال في الخنادق مختلفة مثل توزيع الماء منها وبناء المخادع فيها واقامة المتاريس عليها واملاء الاكياس بالرمل لسد ما تثغرهُ القنابل منها . فعمل جنود الارطة هذه الاعمال

كلها وقد تعلموا الآن ان لا يرفعوا رؤوسهم ولا يشرفوا من فوق المتاريس ولا يوصوصوا من ثقوبها ولا يقيموا في الخنادق التي اهدت اليها مدفعية الاعداء وجعلتها هدفاً لها بل يلصقوا دائماً بجدار الخندق سواء وقفوا فيه او ساروا . وعرفوا كل الاماكن التي يكثر الخطر فيها فاجتنبوها الا عند الضرورة . وبقي شيء واحد لتمرينهم على الحرب في الخنادق فجاء نحو الظهر وهم ينتظرون غداءهم سمعوا صوتاً كصوت مدفع صغير لا يُعبأ به وبعد لحظة من الزمان سمعوا شيئاً وقع على الوحل خلف الخندق فنظر اليه الرجال القريبون منهُ وهم لا يعلمون ما هو وبعد لحظة اخرى سمعوا منهُ صوتاً كالرعد القاصف فاركنوا الى الفرار باسرع ما يمكن لكن بعضهم اصيب بقطع من الحديد والمسامير . فان الذي رُمي والفجر قنبلة من القنابل المفجرة رشقهم بها الالمان ولحسن حظهم وقعت بعيدة عنهم فلم يصابوا الا بجروح غير بالغة . ثم سمعوا صوتاً آخر ورأوا قنبلة آخر آتية نحوهم وظن كل واحد منهم انها واقعة عليه لا محالة لكنها وقعت امام الخندق ولم تصل اليه ولما انفجرت طار منها الى الخندق بعض الشظايا وكثير من التراب فلم تؤذِ احداً

واذا بقنبلة ثالثة وهذه وقعت وراء الخندق ورابعة وهذه وقعت امامهُ قريبة منهُ ولم يفقه الجنود معنى ذلك قاطبةً بالم وازدروا هذه القنابل ولكن اطمئنانهم وازدراءهم زالا اذ رأوا بعد لحظة القنبلة الخامسة وقعت داخل الخندق تماماً وانفجرت بصوت صمّ الآذان وملأت الهواء بالشظايا والدخان والروائح الخبيثة

ولما رأى الالمان انهم اصابوا الغرض اخذوا يطلقون القنبلة بعد القنبلة فتقع كلها في الخندق ولم يتركوا قدماً منهُ في ما طولهُ ستمائة قدم الا اوصلوا اليها قنابلهم . وهنا لا ينفع الالتصاق بالجدران ولا الاستلقاء على الارض ولا الدخول الى المخادع المحفورة في جوانب الخنادق ولا سبيل للنجاة الا الغوص في الوحل وقد لا يسلم الغائص

واستغاث قائد الارطة بالمدفعية فاطلقت مدافعها على خنادق الالمان فلم تسكت الهاون الذي كان يرشق هذه القنابل . واستشار القائد الذي فوقهُ عمّا يقولهُ لاسكاتهِ فاشار عليهِ ان يقابلهُ بهاون الخنادق فقال ليس عندي من هذا الهاون ولا عند رجل يعرف ان يستعملهُ فاستغرب القائد الاكبر ذلك وقال لهُ انهُ سيرسل اليهِ هاوناً ورجلاً يعرف استعمالهُ وامرهُ ان يعلّم رجالهُ في المستقبل كيفية استعمالهِ

فاجاب القائد بالسمع والطاعة وقال للقائد الاكبر هذا سافعلهُ حسب امرك ولكن ماذا افعل الآن حتى لا تُتاصل ارطتي كلها . وبعد قليل وصل اليهِ هاون وكثير من القنابل

التي تطلق به وضابط ليستعملهُ فسرّي عنهُ وحسب ان ساعة الشدَّة زالت ولكن الضابط قال انهُ لا يعلم كيف تستعمل هواوين الخنادق وانهُ لم يرها الاَّ منذ اسبوع. والذي اراهُ اياها شرح لهُ كيفية استعمالها باللسان ولكنهُ لم يجربها امامهُ

وأُتي بالهاون الى الخندق الامامي وجعل ضابطهُ يشكو من رئيس المدفعية قائلاً انهُ ارسلهُ مع آلة لا تصلح للاستعمال في الحرب ولا تقتضي عملاً بتسديد المدافع . وكان هذا الهاون انبوبًا من الحديد الزهر مسدوداً من احد طرفيهِ منصوبًا بين فائتين مائلاً على زاوية ٤٥ درجة يحشى بصرر صغيرة من البارود ملفوفة بالورق وتزحم بقضيب يشق الورق حتى يخرج البارود منهُ في اسفل الهاون ثم تُدخل بعدهُ قنبلة من الصفيح كصفائح المربَّى مملوءة بمواد متفجرة وقطع من الحديد والمسامير ولها فتيل يوضع فيها قبل اطلاقها و يشعل طرفهُ ثم تطلق . وتظهر على كل ذلك آثار السذاجة حتى كأن هذا الهاون وقنبلتهُ من العاب الاولاد التي لا يخطر على بال عاقل استعمالها في هذه الحرب المشهورة بدقة آلاتها ووضعها على القواعد العلمية .

ولما رأى القائد كيفية وضع البارود في الهاون قال هل يحتمل ان تصيب القنبلة شيئًا

فقال الضابط نعم انها تصيب احيانًا

فقال القائد فلماذا اذًا بعثوا الينا بآلة لا تصلح الاَّ لان توضع في معرض الاسلحة القديمة فقال الضابط ان هذا الهاون من احدث طرز لاطلاق القنابل المتفجرة وقد صنع في دار الصنعة الملكية والقنابل وان كانت من صفائح المربى الاَّ ان استعمالها على هذه الصورة حديث لم يمضِ عليهِ بضعة اشهر وانظر كيف تنفجر . ثم رمى واحدة منها في الطين والفتيل فيها فانفجرت واثارت الطين فوق المتاريس وقال للقائد والذين معهُ تنحوا عني وراء منحنى الخندق وساتبعكم حينما اضع هذه القنبلة في الهاون لئلاَّ تنفجر ههنا فتفعل بنا اكثر مما اودُّ ان تفعل بالالمان

فتوارى القائد والذين معهُ ثم تبعهم الضابط بعد ان اطلق بارود الهاون ورأى الجنود القنبلة تخرج منهُ وتسير نحو خنادق الالمان في خط منحنٍ وهي تدور على نفسها ثم وقعت في خنادق الالمان وحينئذٍ اطل الضابط من فوق المتراس ليرى ما فعلتهُ واذا برصاصتين من رصاص الالمان مرَّا بجانب اذنيهِ فعاد ادراجهُ وطلب من القائد ان يأمر رجالهُ لكي يكثروا من اطلاق بنادقهم على خنادق الالمان حتى يتمكن هو من مراقبة قنابلهِ من كوة في المتاريس . ولم يكد يضع عينهُ على الكوة حتى سمع صوت هاون الالمان ورأى الدخان يخرج منهُ فقال عرفت أين هو ثم سدَّد هاونهُ وزاد مقدار البارود الذي وضعهُ فيهِ واطلق قنبلة اخرى فكان لانفجارها دوي عظيم اثار التراب من خنادق الالمان كالزوبعة ونظر من الكوَّة واقسم

ان هذا الصوت لا يمكن ان يكون صوت انفجار قنبلة فقط فلا بدَّ من انها اصابت هاون الالمان ونسفت قنابلهُ وقد هان الامر علينا الآن

وابطل الالمان اطلاق القنابل من هاونهم فترجح انهُ اصيب كما قدَّر الضابط اما هو فاستمرَّ على اطلاق القنابل عليهم ساعة زمانية وكانت قنابلهُ تسير جزافاً بعضها يقع في خنادق الالمان وبعضها يتعدَّاها وبعضها يقصر عنها وهو يقول انا اذا اصبنا في واحدة من ست فذلك من التوفيق

وكاد جنود الارطة يطيرون فرحاً بفعل هاونهم واسكاتهم لهاون اعدائهم ولكن فرحهم لم يطل لانهم سمعوا طلقين في وقت واحد ورأوا كرتين سوداوين تسقطان عليهم من الجو ثم توالى سقوط هذه الكرات وكانت تنفجر في خنادقهم ويخرج منها نار ودخان وقطع من الحديد تنتشر في كل مكان منها فجعل ضابط الهاون ينقل هاونهُ من مكان الى آخر لان الالمان اهتدوا الى محلهِ وجعلوهُ هدفاً لهم ولم يكف عن اطلاق القنابل حتى كاد هاونهُ يتمزق الى ان اطلق آخر قنبلة منها

والظاهر ان هواوين الالمان كانت امثن من هاونهِ واجود فاستمروا على اطلاق القنابل منها ساعة اخرى حتى كادوا يخربون خنادق الارطة كلها وما عليها من المتاريس ولما حاول الجنود اصلاح متاريسهم قابلهم الالمان بمدافع مكسم والقنابل الرشاشة

ودامت هذه المعركة ٢٤ ساعة فقتل من الارطة تسعة وجرح ستة وثلاثون ثم أبدلوا تلك الليلة بغيرهم

ويقال بالاختصار ان النجوم خرجوا من خنادقهم مسرورين بما فعلوا ولو قُتل منهم مَن قتل وهنأهم قائدهم بما ابدوا من الشجاعة والجلد . فعادوا الى مساقة الجيش وهم يتوقعون ما تكتب عنهم الجرائد حاسبين انهم صدُّوا هجمات العدو ولا بدَّ ما يوصفوا بالبسالة والمهارة لاسيما وانهم اول الجنود المتطوعة الذين دخلوا حومة الوغى . وقدَّر المتفائلون منهم انهم يرون عموداً تاماً في الجرائد في وصف ما فعلوا ورجح المتشائمون انهُ لا يكتب عنهم غير بضعة اسطر ولا يذكر اسم ارطتهم بالذات بل يقال ارطة من المتطوعة

فقال المتفائلون معها كُتب عنا فاننا نكتب الى اهالينا ونخبرهم اننا نحن الذين اشير اليهم بتلك الكتابة . وجعل الفريقان يتصفحان الجرائد من اولها الى آخرها يوماً بعد يوم ويفتشان عمَّا يقال تحت عنوان شاهد عيان وعنوان البلاغ الرسمي فلم يجدا شيئاً وكل ما ذكر فيها في اليوم الذي حاربت فيهِ هذه الارطة هو الكلمات التالية . « لم يحدث شيء يستحق الذكر في الميدان الغربي »